

المناهج التربوية كواجهة ثقافية للمجتمع.

د. جميلة حيدرة المركز الجامعي أحمد زبانة-غليزان

الملخص

المقال هو دراسة تستعرض بالنقاش والبحث جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فترة الاستعمار الفرنسي في تطوير أحوال التعليم والاهتمام بعملية التربية، وقد ركزنا في ذلك على مظاهر من تجربة جمعية العلماء في اهتمامها بتحسين البرامج أو المناهج التربوية لمدرّساتها، جامعة في ذلك بين الأصالة باعتبار أن أية منظومة إلا وهي نتاج مجتمعها المحلي والانفتاح على النظام التربوي للمدرسة الحديثة ممثلة في نموذج المدرسة الفرنسية العمومية في الجزائر آنذاك.

مقدمة:

ينظر بعض المعلمين إلى المنهاج التربوي نظرة ضيقة فيعتقدون أن المنهاج أو البرنامج هو مجموعة من المواد المقررة من طرف السلطات التعليمية والمحددة بلوائح رسمية، والحقيقة أن البرنامج ذو معنى أوسع فهو يشتمل على كافة الأنشطة التي تدور في المدرسة أو خارجها بتوجيه منها بقصد تنمية التلميذ، تربيته وتكوين شخصيته كفرد في إطار من أهداف الجماعة ومطالبها. وعلى العموم فالبرنامج الذي تهيؤه المدرسة لتلاميذها نبي قوامهم وبعدهم للحياة. ولقد كان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور في تحسين أداء العملية التربوية والتعليمية وتبقي مدرساتها تجارب تستحق الدراسة والأخذ بها باعتبار أن أية منظومة تربوية في العالم إلا وترتبط بمجتمعها المحلي.

كما تجدر الإشارة إلى أن المشروع الاصلاحى للشيخ ابن باديس كان يهدف إلى تحقيق ما فيه صلاح النشء الجزائري، مستمدا منهاجه في تحقيقه إلى الآية رقم 13 من سورة الرعد: (**لن الله لا يغير ما قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**)، فالتغيير ههنا مقصود ودوره كان في رد البنية الفكرية للعقلية الجزائرية إلى حالة الاعتدال، الذي لا يكون إلا برد العقل إلى نمط من التفكير السليم الذي لا ينافي المنطق.

ولأن الهدف من البحث هو عرض تجربة جمعية العلماء في مجال التربية والتعليم، ثم دورها في المحافظة على الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري وصل الشخصية الوطنية، والانفتاح في الوقت نفسه على المدرسة الحديثة، فإن التساؤل الذي نطرحه هو: فيما تمثلت أسس المنهاج التربوي لجمعية العلماء وكيف ساهمت سياستها التربوية التعليمية في الحفاظ على الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائري وتشكل الوعي الوطني لدى الناشئة ؟

تمثل الحدود المكانية للدراسة في حيز جغرافي محدد من الجزائر، انطلاقا من المعلومات المتوفرة لدينا، إذ ضمت عمالة وهران (مدينة وهران والغرب الجزائري) وعمالة قسنطينة (مدينة قسنطينة والشرق الجزائري)، أين تسنى لنا تقديم نماذج عن مدرسات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتجاربها في حقل التربية والتعليم.

مفهوم المنهاج التربوي:

يشمل المنهاج التربوي كل نشاط تنظمه المدرسة ليهارسه التلميذ وليكتسب عن طريقه المعلومات والمهارات والاتجاهات، وليصبح شيئا مختلفا عما كان في أول العملية التعليمية، فهدف البرنامج إذن تنمية قوى الطفل الجسمية والعقلية وإكسابه طرق التفكير السليم والمحافظة على الصحة، وهدفه كذلك تدريبه على ممارسة الأخلاق الحميدة وتهذيب روحه وترقيته وجدانه وإعداده ليكون مواطنا صالحا، وهذا كله لا يتأتى عن طريق المواد الدراسية وحدها وإنما عن طريق المواد الدراسية

وجميع الأنشطة التي تنظمها المدرسة من جولات في البيئة ورحلات لكشف معالمها ووسائل تعليمية تستخدم في الدراسة وجاعات للنشاط المدرسي يتعلم فيها التلاميذ الحياة الاجتماعية الحقيقية من تعاون وتحمل للمسؤولية، وكسب لبعض المهارات العملية التي تعين على شغل وقت الفراغ بطريقة مثمرة، تساعد في الكشف عن القوى والاستعدادات لدى التلاميذ وتمييزها، إضافة إلى ذلك فإن المناهج التربوي لجمعية العلماء عبر أيضا عن سياستها التربوية التعليمية.

أولا، أسس المنهج التربوي لجمعية العلماء:

جمعت جمعية العلماء في وضع منهجها التربوي بين مواد الدراسة والأنشطة، تحقيقا لأغراضها التربوية التي لم تخرج في الأساس عن مشروعها الإصلاحية الذي ارتبط بإصلاح العقول فكريا ونقائا معتقدها الديني عن طريق التربية أولا وتحسين التعليم ثانيا، مع المحافظة على المدرسات بطابعها المحلي الأصيل، فالتربية مثلت بالنسبة للعلماء وقائدهم ابن باديس الموجه الأساسي في تحقيق هدفهم من المشروع التجديدي ممثلا في الإصلاح الديني والأخلاقي²؛ وكانت المدرسة والصحافة خياران أساسيان في توجيه هذا المشروع لتحقيق أهدافها النهضوية، إذ دعت جمعية العلماء إلى فتح مدارس التعليم العربي الابتدائية، لأنه الخط الذي تبتدئ منه النهضة العلمية³؛ حيث ورد في الفصل السادس من القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومبادئها الإصلاحية: (للجمعية أن تؤسس شعبا في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي)⁴.

ومما يؤكد نجاح مدرسات الجمعية عدد الطلبة الذي كان في ازدياد مستمر⁵، وفي مدرسة دار الحديث مثال على هذا بسياستها التعليمية التي انتهجتها لتطهير عقول تلامذتها خاصة من البدع الدينية⁶، أو مدرسة التربية والتعليم، التي أسسها الشيخ ابن باديس برعاية من جمعية التربية والتعليم في مدينة قسنطينة.

أ/ التدريس باللسان العربي:

أكدت جمعية العلماء منذ البداية أن التعليم بمدارسها هو تعليم عربي، فالأمة الجزائرية أمة مسلمة ولغة دينها هي العربية. إذن، فالحفاظ على اللغة العربية والإسلام هو حفاظ على مقومات الأمة الجزائرية، لكن موقف الحكومة الفرنسية في الجزائر ضايق تعلم اللغة العربية بما كانت تصدره من قرارات وقوانين تعرقل تعلمها⁷، فقاومت التعليم العربي بأن أصدرت قوانين من مجلس الأمة في فرنسا العاصمة، وغالبا عام مطلق، شمل كل تعليم عربي حر لم تباشره الحكومة بأية لغة كان ومن أية جمعية صدر، والثاني قرارات إدارية فردية، مصدرها الحكومة العامة في الجزائر، بنيت على تقارير بوليسية خاص بالجزائريين، يتقصد منها التضييق على اللغة⁸.

انتشار مدرسات جمعية العلماء عبر ربوع الجزائر لدليل على طلب الجزائريين وإقدامهم على التعليم، فجاءت جهود الجمعية في سبيل تحقيق ذلك، وطموحة أيضا إلى إعادة اللغة العربية إلى سابق

عهدها لغة علم وخطابة، هذا ما جعل التعليم باللغة العربية شرطا للتعليم داخل مدارسها، فلقد جاءت المدرسات الحرة إستجابة لحاجة الجزائريين إلى التعليم الذي لم يتكفل به التعليم العام الفرنسي، شديد الإقصاء، كما أن الشيخ ابن باديس، هو ومؤيدوه وأعضاء الجمعية من العلماء، وفي إطار البعد الإصلاحي للمشروع التجديدي النهضوي، عملوا على إسترجاع حضور اللغة العربية ومكانتها سواء في التعليم أو التواصل⁹.

كان معهد ابن باديس المشيد سنة 1947 بقسنطينة مثالا لذلك، كشرط أساسي لأية نهضة فكرية. ونستعرض كمثال هذا الجدول المبين أسفله عن عدد المدرسات المحصية بالرجوع إلى ما ورد في التقرير الذي قدم لعمالة وهران في 1952 الذي أحصى 17 سبعة عشر مدرسة، 9 تسعة منها تابعة لجمعية العلماء.

جدول رقم 01: المدارس التي افتتحها الجزائريون ممثلة في جمعية العلماء والناشطة سنة 1952.

المدرسة	المدينة	سنة الافتتاح	عدد المعلمين	عدد التلاميذ
دار الحديث	تلمسان	1937	10	878
جمعية الفلاح	وهران	1937	06	130
جمعية التربية والتعليم	وهران	1939	04	270
المدرسة الإصلاحية	سيدي بلعباس	1946	04	215
جمعية الفلاح	تيارت	1946	03	150
التربية والتعليم	غليزان	1944	02	156
الجمعية الأدبية	معسكر	1927	01	110
المدرسة	الغزوات	1948	01	75
الشبيبة الإسلامية	أولاد ميمون	/	01	56
جمعية الإرشاد	وهران	1946	01	43
الشهاب	أرزويو	1947	01	38

المصدر: أرشيف ولاية وهران، العلة 6987، قائمة مفصلة للمدرسات، Préfecture d'Oran، SLNA، في 12/06/1952.

ناهيك عن مؤسسات أخرى مارست نشاط التعليم وصنفتها التقرير نفسه أنها مدرسات على شاكلة المدرسات الأخرى التي أحصاها، ويوضح هذا الجدول الملحق تلك التابعة لجمعية العلماء في منطقة الوهراني.

جدول رقم 02: المؤسسات المصنفة على شاكلة مدرسات تابعة لجمعية العلماء وفق تقرير 1952.

المدرسة	المدينة
التعليم والارشاد	سيق
التربية والتعليم	مغنية
التعليم والتهديب	بني صاف
عبد المؤمن	ندرومة
جمعية الهداية الإسلامية	مستغانم
جمعية التوحيد	المرسى الكبير
جمعية بني هديل	عين غرابة

المصدر: أرشيف ولاية وهران، العلبة 6987، قائمة مفصلة للمدرسات، Préfecture d'Oran ، SLNA، في 12/06/1952.

ب/ تطوير المواد الدراسية:

أشرفت جمعية العلماء ممثلة في لجنة التعليم العليا بنشر عناوين الكتب المقررة على السنوات الدراسية¹⁰ وكذا اختيار البرامج التعليمية وتأمين الكتب اللازمة للتلاميذ¹¹؛ وضعت جمعية العلماء برنامجا من المواد التي يرحم لتلاميذها، انطلاقا من القيمة الاجتماعية للمادة وما تحويه من مضمون معرفي، فمادة اللغة كانت ضرورية أمام حالة الأمية التي استشرت بين الجزائريين، كما أن مادة الحساب التي أدرجتها جمعية العلماء كمادة دراسية ذات أهمية عملية هي الأخرى فالفرد يحتاج إلى تعلم الحساب الذي بدوره مهم في نشاطاته اليومية، فتنقل بذلك فائدة التعلم من المادة إلى السلوك. ووضح الشيخ ابن باديس أهمية إصلاح برامج المواد، مؤكدا على الصبغة التي يجب أن تكون عليها قائلا: (التعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، ..وعني بالتعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه)¹².

كانت مدرسات جمعية العلماء تقدم دروسا ذات مستوى عال، فالبرامج لم تقتصر على تعليم القرآن والتلايمذ كانوا يحفظون السور وما تيسر في تفسيرها، وفي مادة اللغة العربية عمدت إلى استخدام كتب احتوت نصوصا مختارة¹³، بل تعدتها إلى تعليم مواد أخرى كالجغرافيا فأفردت جمعية العلماء

حصصا خاصة لتدريس مادة جغرافية الجزائر والوطن العربي وتوضيح العلاقة بينها بإعتبار أن العامل الجغرافي لا يقل أهمية عن العامل اللغوي، التاريخي أو الثقافي¹⁴، وتعرز الإلتواء إلى الأمة الإسلامية؛ بدأت دروس الجغرافية في السنة الثالثة إبتدائي، حصصا مستقلة عن درس التاريخ ويوضح فيها خرائط محلية للتلاميذ، القيام بالرحلات للوقوف على المعالم الأثرية والتاريخية ودروس خاصة بجغرافية الجزائر¹⁵. أما مادة التاريخ، فمنذ سنوات الثلاثينات، راود جمعية العلماء طموح إلى إعداد كتب مدرسية جزائرية في التاريخ؛ يستوقفنا البحث ههنا عند محطات تاريخية نوهت إلى وجوب دراسة التاريخ المحلي، منها إتحاد طلبة شمال إفريقيا المسلمين، حيث ركز المؤتمر الثاني للإتحاد المنعقد ما بين 25 و29 أوت 1932 بنادي الترتقي في الجزائر بمعونة من جمعية العلماء على الإهتمام بالتاريخ بإعتباره مرجعا في بناء قيم شعوب المغرب، حيث تمحورت المداخلات حول أهمية تدريس مادة التاريخ العربي والإسلامي، ومرجعيتها في تلقين الثوابت الوطنية، وتحبيب الماضي لشباب المغرب، وهي الآمال نفسها التي حملتها جمعية العلماء، ومن المداخلات المقدمة من الوفد الجزائري التي نوهت إلى تدريس المادة، مداخلة سعد الدين ابن أبي شنب في مقارنته بين السياسة الفرنسية في إدراج مادة التاريخ في مختلف المراحل التعليمية وإهمال بلدان المغرب لها وبالخصوص تاريخ المنطقة رغم ضرورته في أخذ الدروس والعبر، بدوره نوه الشاعر مقدي زكريا إلى أهمية التاريخ، بل ربطه بالطباعة والتأليف لخدمة الوعي الطلابي، واقترح تأليف كتابين عن تاريخ المغرب أحدهما للمدارس الثانوية والآخر للمدارس الابتدائية¹⁶، الفكرة نفسها التي باشرت جمعية العلماء منذ 1937 في تطبيقها، إذ تبنت برنامجا تعليميا للغة العربية والتاريخ وتمثل هذه العناصر الثلاث الأولويات التي يجب أن يعرفها التلاميذ عن بلدهم مع الحفاظ على تلك الروح التجديدية المستلهمة من النهضة المصرية. لكن مشروع جمعية العلماء في كتاب مدرسي جزائري لم يكتمل، حيث علمت به الإدارة الفرنسية فشددت الرقابة عليها منذ 1938، وبقي مدرسو الجمعية يعتمدون على الكتب المصرية، ونشير في هذا السياق إلى صدور كتاب تاريخ الجزائر في جزئه الثاني سنة 1932 لتوفيق المدني¹⁷، ولا يمكن تأويل هذه الإجراءات إلا بتخوف الإدارة الفرنسية من سياسة الجمعية في تطوير مناهج تربوية جزائرية تؤكد على المقومات الثقافية والحضارية للشخصية الجزائرية. خضعت مدرسات الجمعية إلى برنامج قاعدي مشترك بينها تسيير وفقه عملية التعليم، أسس على ثلاثة فروع تعليمية هي¹⁸:

* الفرع الديني بدراسة رسالة التوحيد لأبي زيد القيرواني.

* الفرع اللغوي بدراسة كتاب الصرف والنحو لابن عجبون.

* الفرع التطبيقي أو الحيوي بدراسة الحساب، الجغرافيا واللغة الفرنسية.

... وصف أحمد طالب الإبراهيمي في مذكراته مدرسة جمعية العلماء على أنها مثلت نموذج المدرسة الحديثة في تعليم الآداب والعلوم، أين توظف ملكات الأطفال وبطريقة متناسقة في تعليمهم¹⁹.

أما في قضية اللغة فيتجلى التوجه العقلاني لفكرها الإصلاحية في التعامل مع سياسة الاستعمار الفرنسي عن طريق التأقلم عوض المواجهة المتطرفة والممارسة التربوية والتعليمية الحكيمة للجمعية في تعاملها مع قضية اللغة مع الاستعمار الفرنسي سواء بالنسبة للغة العربية وما كانت تعانیه من تضيق أو اللغة الفرنسية التي جمهل بها كثير من الجزائريين لعدم تمكنهم من الالتحاق بالمدرسة الفرنسية والتي كانت حاجة ملحة رغم ذلك للتواصل مع الأوروبيين وحتى الإدارة الفرنسية، فأقدمت على تعليم اللغة الفرنسية لطلبة المدارس فلم تترك المجال لدعاوى الإدارة الفرنسية في أن المتخرجين لا يستطيعون العمل في إدارتها بدعوى أحادية اللغة أي العربية²⁰ وقد أشار إلى هذه الحقيقة، ناهيك عن وضع العامل اللغوي ذريعة لذلك-، مداخلة أحد الطلبة الجزائريين خلال المؤتمر الأول لطلبة شمال إفريقيا في 20-22 أوت 1931 في تونس، (أما مداخلة الطالب الجزائري محي الدين الشرقي فقد تركت حول جل العراقيين التي يتلقاها الطلبة المسلمون من خريجي الجامعة من حيث حضور العمل والترقية والاندماج في المحيط المهني مقارنة مع أبناء المعمرين، وضرب مثلا عن خريجي كلية الحقوق الذين لا يحق لهم تقلد منصب في المحكمة إلا من كانت جنسيته فرنسية مع أنه في دولة عربية)²¹.

في المقابل خصت التلاميذ الجزائريين في المدارس العمومية الفرنسية ببرنامج دراسي مناسب درسو من خلاله المواد المرتبطة بمقومات الشخصية الوطنية من لغة عربية، جغرافية الجزائر والتاريخ الإسلامي، حفاظا على هويتهم الوطنية²²، فخصت هذه الفئة من التلاميذ بفوج مستقل برمجت لهم دوما يبدأ من الساعة الخامسة مساء إلى الساعة مساء²³، وتكون الجمعية بسياستها هاته قد ساهمت بدورها في تكوين هذه الفئة، حيث لن يمتع تعليمها الفرنسي من حفاظها على اتناؤها إلى ثقافتها الجزائرية والافتتاح عوض الاحتواء داخل الثقافة الفرنسية، ومن المدارس التي زاولت هذا النظام، مدرسة الحديث بتلمسان²⁴.

لقد كان للتعليم العربي دور في تعلم التلاميذ الجزائريين ممن زاولوا تعليمهم بالمدارس العمومية الفرنسية، للغة العربية الفصحى وإتقانها بترددهم على مدارس التربية والتعليم لجمعية العلماء، حيث كانت المدارس العمومية تعلم العربية النارجة، وأدل على ذلك ما ذكره الأستاذ عبد القادر بن محمد بلقاضي في شهادته ' ذكرياتي في التربية والتعليم': (أما اللغة العربية فلم أتعلّمها في المدرسة الابتدائية وكان أول اتصالي بها في الكوليج مع أستاذ أجنبي هو السيد MALPEL وكان يدرّس لنا اللغة النارجة، وقد قال لنا في يوم من الأيام، هناك لغة عربية أخرى هي اللغة الفصحى، وضرب لنا مثلا بهذه الجملة التي كتبها على السبورة: 'ضرب رجل فرص رجل' ووضع الحركات وكلفت أنظارنا إلى اختلافها في أواخر الكلمة من رفع ونصب وخفض. وأدهشني ما سمعته من رقائبي بعد أن وضع الأستاذ كل الحركات، إذ صاحوا قائلين: 'جملة صحيحة' قلت لهم: 'من أين لكم هذا؟' فأجابوني: 'إذا أردت أن تعرف ذلك فاتبعنا بعد

الرابعة زوالاً إلى المدرسة الحرة' فقلت: نعم، سأتبعكم' وتبعتم بالفعل فكانت هذه الظروف سبباً في تغيير مجرى دراستي فيما بعد.²⁵

كما أن البرنامج التعليمي شمل مواد أخرى كالصنائع اليدوية لأهميتها في الحياة اليومية للأفراد، إذ اعتبر الشيخ ابن باديس أن دراسة التلاميذ وحاجاتهم الضرورية ترتبط بالبيئة التي يعيشون فيها²⁶، هذه المادة كانت ضمن مواد النشاط الصفي وحققتها التربية أنها تنشيط التلاميذ وتبني استعداداتهم الكامنة مثلها مثل النشاطات الغير صافية ذات البعد الثقافي من إنشاد ومسرح مدرسي؛ نستعرض كمثل البرامج التعليمية الخاصة بالطور الابتدائي على مستوى أقسامه الثلاث²⁷:

القسم التحضيري: اشتمل برنامجه على التعليم الديني والحلقي، القراءة، المحادثة، الخط العربي، المحفوظات والأناشيد، الحساب، الرسم والأشغال اليدوية والتأريخ الرياضية والإستراحة.

القسم الثاني الابتدائي: التوسع في مواد القسم التحضيري، إضافة إلى اللغة العربية بما فيها النحو والإملاء، التاريخ والجغرافيا ودروس المشاهدة.

القسم المتوسط: التوسع في دروس العلوم المقررة في القسمين السابقين، حيث كان يتعلم التلاميذ الإنشاء في اللغة العربية والتأريخ النحوية وخصائص الأشياء والعلوم الطبيعية.

ج/ دور المعلم:

أكد ابن باديس على دوره في العملية التربوية، فصلاهما مرتبط بصلاحه، وحسب رأيه فالمرابي أو المعلم ذو صفات، إذ قال: (أن يكون متمكناً من العلوم والفنون التي يدرسها ملماً بمبادئ في التعليم، قادراً على تفهم نفسيات المتعلمين، وأن يزه العلم عن الطابع الدنيوي عاملاً بعلمه، صادقاً في عمله)²⁸؛ أما الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حث معلمي المدارس على الإستزادة في طلب علومهم في قوله: (... وتوسعوا في المطالعة يتسع الإطلاع، ولا يصدركم الغرور عن أن يستفيد القاصر منكم من الكامل، والكامل ممن هو أكمل منه)²⁹، واعظا إياهم أن مهمتهم هي إنقاذ النشء الجزائري من الأمية التي ضربت به وتجببه في لغته العربية³⁰، مشدداً على دور التربية في تكوين الخلق الفاضل لدى طلاب العلم الصغار منهم والكبار، فحث الإبراهيمي المعلمين كذلك على حسن التربية لتلاميذهم إضافة إلى دورهم في تعليمهم (... وأن تطبعوهم على التأخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغاراً، حتى نأمن تضييعهم لها كباراً، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم، وحب الأب والأم، وحب بعضهم بعضاً، وحب الله ورسوله والإسلام قبل ذلك وعه وبعده)³¹، حيث أشار الإبراهيمي إلى أثر الخلق الفاضل في شخص المعلم حتى وإن لم يكن حظه وفيرا من العلم، فالأمة ما سقطت إلا بنقص في الأخلاق؛ وهم من منصبهم هذا معلمون للصغار، حيث يأخذون من أخلاقهم وعلمهم وأئمة للكبار بما يأخذ هؤلاء من أخلاقهم إن من بين المهام المتوجبة على المعلم هو أن يربط العلم بدروس الحياة، ولا

يعتمد على تحصيل المعرفة في صورته النظرية، ومن جملة توجيهات الإبراهيمي في ذلك، قوله: (امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأت التركيب بعجيبة، ولا تعمرُوا أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد، هو الذي صير علماءنا مثل " القواعد"، وإنما القواعد أساس، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء؟)³².

عمدت جمعية العلماء إلى (تأسيس لجنة التعليم العليا عام 1948 للإشراف على شؤون التعليم في الجمعية، وحاولت هذه اللجنة حل المشاكل التربوية التي كانت تعترض المعلمين، وذلك بتنظيم ملتقيات تربوية دورية معهم تناقش فيها المشاكل، كما كانت تنشر دروساً نموذجية خاصة بالمعلمين لتنمية ثقافتهم، وتوسيع خبرتهم المهنية)³³، أما في عام 1951 فقد أعلنت اللجنة نفسها قرارها بالإجراع في اعتبار الشهادات العلمية كشهادة التحصيل من جامع الزيتونة، شرطاً أساسياً لقبول المعلمين بمدارس الجمعية³⁴.

بعد فترة يسيرة، بدأ تعيين المعلمين لا يخضع إلى شرط الحصول على شهادة التحصيل من جامع الزيتونة، بل بدأ تعيينهم منذ 1953 على مستوى مدرسات الجمعية يجمع بين شرط الحصول على الشهادة المذكورة وكذا اجتياز امتحان خاص، أطلق عليه اسم امتحان أهلية التعليم وهو يشتمل على ثلاثة مواد³⁵.

أ/ إلقاء درس على جمع من الطلبة من مناهج التعليم لمدارس جمعية العلماء.

ب/ موضوع إنشائي.

ج/ سؤال تربوي.

بلغ عدد معلمي جمعية العلماء وفقاً لما أورده جريدة البصائر من إحصائيات، 275 معلماً ومعلمة³⁶ ولا يشمل هذا العدد المعلمين الموقوفين عن مزاولة مهنتهم بسبب ملاحظات الإدارة الفرنسية وكذا المسجونين لديها بسبب نشاطهم التربوي والوطني.

د/ الأساس النفسي الأخلاقي للمتعلمين:

إن الغاية من المدرسة لدى جمعية العلماء هي تربية جيل الجزائر وتعليمه، هذا ما جاء على لسان الإبراهيمي في مقال له "حقوق الجيل الناشئ علينا" صادر في جريدة البصائر، وغايتها في ذلك توثيق عرى الأخوة بين تلاميذها وتوحيد أفكارهم ومشاربهم واتجاهاتهم وتصحيح فهمهم للحياة، وتسديد نظرتهم إليها وتشديد عزيمتهم في طلبها³⁷، فالغاية التي كانت تهدف إليها مدارس التربية والتعليم هو تحقيق الوحدة الفكرية والدينية بين تلامذتها حتى يعملوا بإرادة لصالح دينهم ووطنهم، (وغاية الغايات من التربية - هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة، وتصحيح نظراته إلى الحياة ونقله من ذلك المضطرب الفكري الضيق الذي وضعه فيه مجتمعه- إلى مضطرب أوسع منه دائرة، وأرحب أفقا، وأصح أساساً)³⁸؛ أما الغاية من التعليم فهي (تفقيهه في دينه

ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جعلها آباؤهم فحشوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد³⁹.

إذن، فنجاح العملية التربوية وتطويرها يحتاج ناهيك عن البرنامج والمعلم إلى عنصر ثالث آخر هو المتعلم، حيث نادى ابن باديس بضرورة مراعاة الجوانب النفسية للتلاميذ والانتباه إلى الفوارق الفردية (العقلية والاجتماعية)، كما حث على التعامل معهم وفق استعداداتهم وقدراتهم العقلية والفكرية⁴⁰، ولم تستثنى كما سبق الذكر التلاميذ الجزائريين في المدارس العمومية الفرنسية من دائرة اهتمامها، فخصت لهم برنامجا دراسيا مناسباً يدرسون من خلاله المواد المرتبطة بمقومات الشخصية الجزائرية حفاظاً على هويتهم الوطنية⁴¹، وأرسلت تلاميذها المتفوقين إلى جامعات الوطن العربي والإسلامي، هذا ما أشار إليه تقرير مصلحة العلاقات لشمال إفريقيا *SLNA* في 1953 حيث أحصى عدد 153 طالباً جزائرياً بجامع القرويين منهم 111 من عمالة وهران، يضاف إليهم 51 طالباً في مركز مكناس وهو ملحقة بجامع القرويين منهم 41 من عمالة وهران⁴².

ثانياً، مظاهر افتتاح الجمعية على النظام التربوي للمدرسة الحديثة:

أ/ تنظيم المدرسات:

اختلفت السياسة التربوية التي انتهجتها جمعية العلماء عن تلك المعروفة في الكنائس والزوايا، بل اقتبست في سياستها التربوية مجموعة من التدابير تسيير وفقها المدارس التابعة للإدارة الفرنسية في الجزائر من قاعات وأثاث مدرسي وتنظيم لساعات الدراسة بطريقة حديثة⁴³ نشرت جريدة الشهاب عن إنشاء سبعون مدرسة إلى غاية سنتي 1934-1935 مكونة من قسم أو قسمان وموزعة على مختلف جهات الوطن، يدرس فيها ثلاثة آلاف تلميذ⁴⁴.

بدأت بعض المدارس منذ 1950 تجمع بين التعلّمين الإبتدائي والتكميلي أي الإعدادي التي بلغ عددها على مستوى عمالة وهران، سبعة مدارس هي: مدرسة الفلاح، مدرسة التربية والتعليم (حي المحري- وهران)، مدرسة التربية والتعليم بسيدني بلعباس، مدرسة دار الحديث، مدرسة عائشة للبنات في تلمسان، مدرسة تيارت⁴⁵، وكذلك فقد حددت مراحل الطور الإبتدائي بست سنوات موزعة على ثلاثة أقسام هي: القسم التحضيري، القسم الإبتدائي ثم القسم المتوسط، حيث تبلغ مدة كل قسم سنتان (إرجع إلى تفصيل هذا الطور في العنصر السابق حول المواد الدراسية)، وفي سنة 1952 قررت الجمعية إحداث شهادة الدراسات الإبتدائية⁴⁶، لتقوم بتطوير برنامجها التعليمي وفق الأطوار التعليمية الحديثة للمدارس آنذاك وصار طلبة المدرسات يواصلون تعليمهم بعد نجاحهم نهاية السنة السادسة إبتدائي للالتحاق بعدها بمعهد التعليم الثانوي عبد الحميد ابن باديس، أين كان التعليم مقسماً على مدار أربعة سنوات دراسية يتم الانتقال فيها من سنة لأخرى عبر إجراء امتحان نهاية كل سنة للمرور إلى السنة الأعلى⁴⁷، تأهيلاً لهم حتى يستكملوا تعليمهم العالي في تونس أو المشرق.

ب/ التعلم المعرفي في طريقة التدريس:

وان كان التعليم العربي قد تميّز بالطابع الديني أكثر خدمة لأهداف الجمعية، وتأثرا بالطريقة الأندلسية التي تقوم في الأولد على القرآن والكتاب، ثم يصف الإبراهيمي الطريقة التي ارتضاها بن باديس لتربية النشء، إذ قال: (...هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيّه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعدناه من تلامذتنا)⁴⁸، مما يشير إلى افتتاح الجمعية على المدرسة الحديثة، فالجمعية كانت تحرص على الكيف أكثر من الكم وترى في التركيز على الفهم وإعمال الذهن، فقد اعتمد العلماء الجزائريون في التعليم كمسعى لاكتساب المعارف والمهارات على طريقة يستخدم فيها المتعلم قدراته ومعارفه لتحقيق أهداف التعليم بالتركيز على الفهم، الاستيعاب والذاكرة أكثر من التركيز على الحشو، وهذا ما تدعو إليه طرق التدريس الحديثة التي تقوم على التعلم المعرفي.

ج/ الأنشطة الغير صفية:

عرفت جمعية العلماء افتتاحا على المسرح المدرسي الذي كان يؤدي في المدرسة العمومية الفرنسية وانتهجت الجمعية النشاط نفسه، فلقد كان هذا المسرح يستخدم لعرض الدراما التاريخية، وقد استحسنت الجمعية هذا النوع وأدرجته ضمن مناهجها التربوي؛ وفي استقبال جمعية العلماء للفرقة القومية المصرية التي زارت الجزائر سنة 1950، وحظيت بتكريم مدرساتها⁴⁹ لدليل على طبيعة فكرها الاصلاحى القائم على التجديد والداعي إلى مواكبة العصر والتطور الدائم. إن الاشتراك القائم بين رسالة المسرح ورسالة المدرسة يتمثل في التعليم ونشر الثقافة وبث الوعي بين الأفراد، وقد حلت الفرقة في ضيافة واحدة من مدارس الجمعية النموذجية وهي مدرسة الفلاح آنذاك في مدينة وهران في الفاتح من شهر مارس 1950، كان مديرها في ذلك الوقت الشيخ سعيد الزموشي. اندرج المسرح في المدرسة الفرنسية ضمن البعد التربوي والتعليمي في تعرف التلاميذ على تاريخ أوروبا، وهي النقطة التي جعلت جمعية العلماء منها مرتكزا في إدراج المسرح من ضمن نشاطات مدارس التربية والتعليم.

مما سبق يتجلى أهمية افتتاح الجمعية على هذا النشاط للمدرسة العمومية الفرنسية وتبنيها المسرح نشاطا خارج الصف لكن يخدم أهدافها التربوية والتعليمية في دعم إرادتها النهضوية، وتجسيد الواقع، وقد شجعت الجمعية على كتابة عروض تروي وتستذكر تاريخ المسلمين ونهضتهم بتمثيل شخصياته التاريخية وأحداثه الماضية التي تمجد هذا التاريخ. كما أن ممارسة المسرح كنشاط تربوي ناهيك عن مساهمته في التعليم كان يشخصّ الدرس فيسهل فهمه، لتترك الجمعية انطبعا إيجابيا في سياستها التي توفق بين دعوتها الإصلاحية من جهة وتبني المسرح وتكوين الفرق المسرحية من التلاميذ من جهة ثانية.

استوحى مسرح المدارس مواضيع العروض المقدمة من التاريخ، إحياء لذكريات تاريخية وتمجيد لشخصيات بطولية، إذ نذكر على سبيل المثال العروض المقدمة بمدرسة الفلاح في مدينة وهران: عمر بن عبد العزيز سنة 1958⁵⁰. إلا أن هذا المسرح لم يخلو من مضامين تحمل معاني الأمة والهوية

الثقافية والتاريخ، كما أن الجمعية ركزت على عنصر الدين والالتقاء إلى الأمة العربية، إذ قدمت مدرسة الفلاح مسرحيات تروي عن تاريخ الدعوة إلى الإسلام وحروب المسلمين، جامعة بين التربية والتنشيف والبعد الديني، منها مسرحيات: أهل الكهف، غزوة بدر، غزوة أحد، الجزائر بالراية البيضاء، هذه الأخيرة عرضت سنة 1953، تذكر بتاريخ الجزائر عهد الموحدين وما آلت إليه من تقسيم إلى دويلات لتصل إلى فترة الاحتلال الفرنسي ومقاومة الأمير عبد القادر، ومثلت في ذلك الجزائر امرأة ترتدي رداء أبيض وتحكي أيام سؤدها ثم ترتدي المرأة رداء أسود ليعبر عن الزمن الكالح لتعود المرأة فتلبس رداءها الأبيض من جديد وتكون النهضة بقدم عبد الحميد ابن باديس⁵¹، الأمر نفسه بمدرسة دار الحديث التي عرضت فيها سنوات الخمسينات، مسرحيات عنتر بن شداد، الحنساء أم الشهداء الأربعة، ومسرحية حنبل⁵²، حيث تناول المسرح مواضيع تاريخية، إلى جانب توظيف الوثيقة التاريخية في كتابة العروض، هادفاً إلى استتعار الوعي بكلمة وطن، بما قدمته من أعمال درامية تحمل معاني الأمة، التاريخ، الهوية الثقافية، أما بمدرسة الفتح فكان الرسام أحمد إسيخايم يعد ديكورات مسرحياتها التي شارك فيها تلاميذ، أحمد إسيخايم الذي بدوره كان من تلامذتها السابقين، ومن بين المسرحيات التي مثلتها الفرقة المسرحية للمدرسة السيف والقلم، بلال، حنبل، ابن الأطلس⁵³؛ فمسرح المدارس أدى دوره في معالجة مواضيع تاريخية، وتوظيف الوثيقة التاريخية في كتابة عروضها، هدفها استتعار الوعي بكلمة وطن، بما قدمته من أعمال درامية تحمل معاني الأمة، التاريخ، الهوية الثقافية، تطبع مقاومة الاستيطان، فالأحداث التي استرجعها مسرح مدرسات الجمعية وكأنه يذكر بالحال نفسه، ولقد كان لمسرح المدرسات دور في تشكيل الوعي الوطني لدى تلاميذها.

كما كانت المدرسات تمارس نشاط الإنشاد، كمدرسة دار الحديث⁵⁴، هذا النشاط عوّد الطلبة على حفظ الأناشيد وترديدها، بل كان يحمل من المعاني التي تعود بالمنشد إلى أصله وتذكره بوطنه، ومن بين الأناشيد التي ردها التلاميذ، النشيد الذي ألفه ابن باديس حيث قال في مطلع...

شعب الجزائر مسلم...والى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله...أو قال مات فقد كذب

خاتمة:

هكذا نجد أن المنظومة التربوية التي قامت عليها مدارس جمعية العلماء قد جمعت بين مكوناتها الأصيلة التي تعكس الانتماء إلى مجتمع محلي محافظة على النماذج التقليدية في التعليم الجزائري مع الانفتاح على المدرسة الحديثة وطرقها في خدمة المتعلمين جسداً وعقلاً وروحاً، ويرجع التوفيق في ذلك إلى النوعية الفكرية لرواد جمعية العلماء الأوائل. لقد جاءت المنظومة التربوية لجمعية العلماء واجهة دفاعية كذلك عن خصوصيات المجتمع الثقافية والتاريخية، ونلخص كيف خدمت المناهج التربوية نشأة جمعية العلماء وصقل شخصياتهم ضمن النقاط التالية:

أولاً، إحداث التغيير في المتعلمين عن طريق التربية أولاً بإصلاح العقول ثم التعليم ثانياً، لأن التربية تغرس الفضائل في نفوس التلاميذ ويحصل التغيير المراد في المجتمع.

ثانياً، أن التعلم ليس مجرد مواد دراسية يتلقى من خلالها المتعلمون للمعرفة، بل أن فائدة التعلم في انتقال هذه المعرفة الحاصلة لديهم إلى سلوكيات لتحصل الفائدة الحقة من التعلم.

ثالثاً، البرامج التربوية ساهمت في تحول العقليات الجزائرية من حالة الشعبوية إلى حالة من تشكل الوعي.

¹السرغيني محمد، التربية، بدون طبعة، الدار البيضاء، منشورات مكتبة الرشاد، 1963، ص.ص 107-108.
²«*Pour les Ulémas, et leur leader, Abdelhamid Ibnbadis, l'éducation constituait, en effet, un axe essentiel de l'entreprise de rénovation Islah religieuse et morale qu'il s'étaient donné comme but.* ».

LARDJANE O, Les médersas libres, Dictionnaire du passé de l'Algérie de la préhistoire à 1962, Sous la direction de Hassan REMAOUN, Oran, Ed DGRST/CRASC, 2005, p. 362.

³الإبراهيمي محمد البشير، معهد عبد الحميد بن باديس، عيون البصائر، بدون طبعة، الجزائر، دار الأمة، 2007، ص 279.

⁴أبو القاسم، سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الثاني، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 433.
⁵يوم دراسي حول "مدارس ومعاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، منظم من طرف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يوم 12 أبريل 2011، مجلة البصائر، الرابط الإلكتروني www.albassair.com، تاريخ الولوج 13 جوان 2016.

⁶نفسه.

⁷الإبراهيمي، التعليم العربي، المرجع السابق، ص 24.

⁸التعليم العربي والحكومة، نفسه، ص 233.

⁹« *L'essor des médersas libres répondait d'abord à ce besoin d'instruction que ne prenait pas en charge l'enseignement public colonial, fortement discriminatoire. Il visait aussi, dans la perspective Islahiste de ses initiateurs et animateurs, à assurer la pérennité de la présence et de l'usage de la langue arabe.* », LARDJANE, p. 363.

¹⁰مفلاح، محمد، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة غليزان 1931-1957، الطبعة الأولى، المحمدية، دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2011، ص 103.

¹¹الإبراهيمي، المرجع السابق، ص 189.

¹²بلحسين رحويآسيا، وضعية التعليم الجزائري غداة الاحتلال الفرنسي، مجلة دراسات نفسية وتربوية، عدد 7، 2011، 79.

¹³HADDAB M, Dar-el-hadith 1937, Dictionnaire du passé de l'Algérie de la préhistoire à 1962, Sous la direction de Hassan REMAOUN, Oran, Ed DGRST/ CRASC, 2005, p. 160.

¹⁴مريوش، أحمد، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير 1954، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة في (التاريخ الحديث والمعاصر)، جامعة الجزائر، الجزائر، الموسم الجامعي 2007/2006، ص 130.

¹⁵نفسه، ص 131.

¹⁶نفسه، ص 137.

¹⁷سعد الله، المرجع السابق، ص 401.

¹⁸LARDJANE, p. 363.

¹⁹« ...*la Médersa Ulamiste, véritable école moderne où l'on enseigne les lettres et les sciences et où l'on met en branle harmonieusement toutes les facultés de l'enfant.* », TALEB-IBRAHIMI A, Mémoires d'un Algérien, Tome 1 : Réves et épreuves (1932-1965), Oran, Ed DGRST/ CRASC, 2009, p. 29.

هذا ما نفهمه من الملاحظة المسجلة حول (Caraouyine-Centre Les Tolbas Algériens au Maroc) في 12/06/1952، أرشيف ولاية وهران، العلبه 6988 d'études de Meknes)

²¹مريوش، المرجع السابق، ص 122.

²²يوم دراسي "مدارس ومعاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، سبق ذكره.

²³دي، بلعربي، السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ودور جمعية العلماء المسلمين في الرد عليها 1830-1962، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التربية، جامعة الجزائر 2، الموسم الجامعي 2010/2011، الجزائر، ص 102.

²⁴REMAOUN, op cit, p. 160.

²⁵بن محمد بلقاضي، عبد القادر، ذكرياتي في التربية والتعليم، المجلد الثالث، منشورات المركز الوطني للدراسات والأبحاث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، ص ص 44/45.

²⁶بلحسين رحوي، المرجع السابق، ص 80.

²⁷مفلاح، المرجع السابق، ص ص 101/102.

²⁸بلحسين رحوي، المرجع السابق، ص 80.

²⁹الإبراهيمي، كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار، المصدر السابق، ص 295.

³⁰نفسه.

³¹نفسه، ص 296.

³²نفسه، ص 300.

³³ديبي، المرجع السابق، ص 200.

³⁴البصائر، 1951، ص 8.

³⁵ديبي، المرجع السابق، ص 200.

³⁶البصائر، 1957، ص 3.

³⁷الإبراهيمي، حقوق الجيل الناشئ علينا، المصدر السابق، ص 302.

³⁸نفسه، ص 303.

³⁹نفسه.

⁴⁰بلحسين رحوي، المرجع السابق، ص 80.

⁴¹"مدارس ومعاهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، سبق ذكره.

⁴²LARDJANE, op cit, p. 363.

⁴³HADDAB,op cit, p.160.

⁴⁴بلحسين رحوي، المرجع السابق، ص 78.

⁴⁵مفلاح، المرجع السابق، ص 85.

⁴⁶ديبي، المرجع السابق، ص 202.

⁴⁷نفسه، ص 203.

⁴⁸بلحسين رحوي، المرجع السابق، ص 79.

⁴⁹عويمر مولود، كيف استقبلت جمعية العلماء الفرقة المسرحية المصرية؟ مجلة البصائر عبر موقعها الإلكتروني:

<http://www1.albassair.org/modules.php?name=Contact>. تاريخ الولوج 22 جوان 2016.

⁵⁰حيدرة جميلة، الحياة الثقافية بوهران 1930-1962 دراسة سوسيولوجية ومونوغرافية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة

الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة وهران 2، الجزائر، الموسم الجامعي 2015/2016، ص 174.

⁵¹نفسه، ص 174-175.

⁵²بومشرة، محمد، حياة دار الحديث العامرة تلمسان، ط1، الوادي، مطبعة مزوار، 2013، ص 27.

⁵³مفلاح، المرجع السابق، ص 104.

⁵⁴HADDAB, op cit, p. 160.